عبد الرحمن بن خلدون

بحث نقدي في حياته واسلوبه وآرائه

٢

مؤلفاته وتحليلها

كان اول ما نشر من مؤلفات ابن خلدون مقدمته التي طبعها في باريس المستشرق الافرنسي Quatremère سنة ١٨٥٨ في ثلاثة مجلدات. وله في ذلك الفضل العميم اذ اليه يرجع الفضل في تمهيد السبيل لكل من تجرد بعده للبحث في حياة المترجم ومؤلفاته. وقد ترجم المقدمة الى الافرنسية البارون دي سلان De Slane سنة ١٨٦٢ واضاف اليها بحثاً ضافياً في حياة المؤلف، مع شروحات مفيدة. وترجمها ايضاً الى التركية محمد پرزاده

وما يسمى اليوم بمقدمة ابن خلدون، يتألف في الحقيقة من مقدمة تاريخه الكبير مضافة الى الكتاب الاول منه. وموضوع المقدمة بتحديد صاحبها «علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاطلاع على مغالطة المؤرخين» واما الكتاب الاول وهو القسم الاكبر من المقدمة المعروفة فيبحث في العمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما الى ذلك من العلل والاسباب، وقد نال ابن خلدون ما نال من الشهرة والمكانة من اجل هذا القسم الصغير من مؤلفه في التاريخ. وما ذلك الا لان المقدمة تحتوي على ملخص آرائه الفلسفية وجميع ما استحدثه من الابحاث على اختلاف موضوعاتها. ولانها فوق ذلك تمثل حقيقة الفورة التي بلغتها العلوم الاسلامية في تطورها اثناء القرون السبعة السابقة. وها نحن ندرج للقارئ موضوعاتها حسبما اعاد ترتيبها وتفصيلها الدكتور طه حسين، ونحن نميل الى الاعتقاد بان عمل الاستاذ هذا هو اجل واتقن ما قام به في كتابه المشار اليه. فقد رتب ابحاث المقدمة في سبعة فصول عنوانها كما يأتي:

١ الظواهر المستقلة عن الاجتماع

٢ الظواهر الاجتماعية للحياة البدوية

٣ الظواهر الاجتماعية لحياة الحضر — السياسية

٤ً الخلافة والامامة
٥ً الخواص العامة لحياة الحضر
٦ً وسائل الكسب
٧ً العلوم والصنائع

وتلا المقدمة في النشر تاريخهُ الكبير الموسوم «كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر» وقد تم طبعهُ في بولاق بمصر سنة ١٨٦٧ ، فجاء في سبعة مجلدات . وقد كنا ننتظر ان يطبق المؤلف اراءهُ الواردة في المقدمة على اسلوب البحث في تاريخهِ، بيد انهُ لم يفعل من ذلك شيئاً بل سلك سبيل من تقدمهُ من المؤرخين العرب كالطبري والمسعودي وغيرهما، اللهم الا في امرين فقط لم يأت هو على ذكرهما في مقدمته حين نقد المؤرخين . فالامر الاول انهُ كان اول من عدل من المؤرخين عن اتباع الطريقة الخبرية بالترتيب السنوي فقسم تاريخهُ الى عدة اجزاء اختصَّ بكل منها امة او اسرة . والثاني ان تاريخهُ يمتاز عما سبقهُ من كتب التاريخ بما تضمنهُ من المقدمات الاجتماعية والفلسفية في صدور اكثر الفصول حين ينتقل في البحث من دولة الى اخرى . ويمكننا حصر ابحاثهِ في تاريخهِ تحت ثلاثة عناوين : —

اولاً اثر الحضارة في الانسان
ثانياً تاريخ العرب من اقدم الازمنة الى ايام المؤلف
ثالثاً تاريخ الامم البربرية منذ احتكاكها بالعرب

ويلحق بآخر تاريخهُ الكبير سيرتهُ التي كتبها بنفسهِ وسماها ، رحلة ابن خلدون، وهي عند التحقيق تاريخ لعلائقهِ السياسية ، وترجمة لكل من اتصل بهم من العلماء والامراء . وقد لخص البارون دي سلان De Slane موضوعاتها في اربعة عناوين رئيسية هي: —(١) تاريخ اسرتهِ (٢) اساتذته ودراسته (٣) علائقهُ السياسية بكل ما تتضمن من احوال تلك الايام (٤) مجموعة من شعرهِ ، ومراسلاتهِ مع ابن الخطيب وغيرهِ من الادباء

وقام اعلام المستشرقين بنشر غير ذلك من كتابات ابن خلدون وترجمة ما يهمهم منها . فطبع البارون De Slane القسم المختص بالمغرب في الجزئين السادس والسابع من التاريخ الكبير في الجزائر سنة ١٨٤٧ ، ثم نشر ترجمتها بعد ذلك بقليل الى الافرنسية ،

وصدرها بمقدمة طويلة ومعجم مفيد لاسماء الامكنة الواردة في الكتاب وترجم المسيو Demombynes الافرنسي كل ما اختص بتاريخ بني الاحمر في الاندلس ، فنشره في المجلة الاسيوية [1] وفاز Fornberg الاسوجي بنشر كل ما ورد في تاريخ ابن خلدون عن حملات الافرنج في بلاد المسلمين . وقد بلغنا ايضاً ان الاستاذ Casanova الذي توفي في العام السابق ، درس وجهة اخرى من تأليف هذا المفكر لم تأكد بعد ماهيتها

هذا وللمترجم مؤلفات اخرى لم يبق لنا منها سوى اسمائها ، قد ذكرها صديقهُ ابن الخطيب في كتابهِ « الاحاطة » ونقلها عنهُ المقري [2] وكلها كما نرى خارجة عن موضوع التاريخ وهي. (١) شرح البردة. (٢) كتاب في الحساب. (٣) شرح رجز في اصول الفقه . (٤) عدة اختصارات لبعض كتب ابن رشد

ابن خلدون مؤرخاً

رأيت في تحليل تاريخهِ الكبير ان ابن خلدون كمؤرخ لا يكاد يمتاز بشيء عن سواهُ من المؤرخين بيد انهُ علينا ان نفرق بين تدوين التاريخ ونقدهِ النظري . ومع ان المترجم لم يأت بشيء جديد في تاريخهِ من حيث التدوين والرواية ، فهو اول من بحث في التاريخ فاستخرج منهُ علماً نقديًّا نظريًّا. ويرى الدكتور طه حسين انهُ قلّد بذلك علماء الفقه ، وسلك سبيلاً الى التمحيص عرفهُ المسلمون حينذاك واستعملوهُ . فقد رأى الفقهاء يستخدمون علم الاصول لدرس تطورات الفقه وتاريخهِ ؛ ورأى المتكلمين يستعملون المنطق للتثبت من صحة جدلهم الديني ، ورأى فوق ذلك رواة السنة والحديث يستعينون بطريقة الجرح والتعديل التي ابتدعوها للتحقق من صدق المحدثين واماناتهم . فعزم ابن خلدون ان يبتكر للتاريخ علماً يماثل تلك العلوم يتخذهُ وسيلة في تمحيص الروايات والتأكد من امانة اصحابها . وكان العصر عصر الموسوعات والمجاميع كما بينا حين نظرنا الى العصر الذي نشأ فيهِ المترجم ، فوجد فيها المادة الكافية لتوضيح فكرتهِ الجوهرية ودعم تعميماتها . ولكن لا يجب ان تنسينا هذه الفرص والتسهيلات ما لابن خلدون من الفضل في ابتداع علمهِ المستحدث، إذ البراعة كل البراعة في استثمار ما عرف من المعلومات والاستفادة من الاحوال التي احاطت بهِ

(١) راجع Journal Asiatique السلسلة ٩ والمجلد ١٣

(٢) في نفح الطيب ....) طبعة معرج ٤ ص ٩١ ٤

والتاريخ على حدّ قوله (لا يزيد في ظاهره عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول . . . . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بان يعد في علومها وخليق (٣) ». فالتاريخ على ما نرى في نظره علم فلسفي موضوعهُ الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من المرافق والمؤسسات . وقد درسهُ فوضع لتقدم ثلاثة مقاييس . اولها : التشيّع في الكتابة وثانيها : سهولة تصديق الرواة واما الثالث : فالجهل بطبائع الاحوال في العمران ، وهو في نظره اهمها واعمها شيوعاً وليست مقدمتهُ وكل ما اشتهر به من الآراء الاجتماعية المبتكرة سوى شرح وايضاح وضعهُ لهذا العلم الذي استحدثهُ واطلق عليه اسم (العمران) . ويستخرج من علمه هذا ثلاثة قوانين رئيسية هي المرجع لجميع آرائه التاريخية : —

١ قانون العلية ، او ربط الاسباب بمسبباتها وهذا الجديدان في كل اجزاء المقدمة

٢ قانون التشابه ، او كما يقول « قياس الماضي بالحاضر والغائب بالشاهد »

٣ قانون التباين ، حيث يقول « ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدّل الاعصار ومرور الايام »

وقد اختلف العلماء العصريون في ماهية هذا العلم الجديد وحقيقته فقال Nesendouk انهُ تاريخ الحضارة ، وسماهُ الدكتور طه حسين بالفلسفة الاجتماعية ، وقال Gemplowicz لا بل هو علم الاجتماع عينهُ . وارتأى غير هؤلاء آراء اخرى في موضوع المقدمة . غير اننا لا نرى مسوغاً لقبول مثل هذه التحليلات ، ونعتقد ان مقدمة ابن خلدون لا تزيد عن كونها اول مؤلف في النقد التاريخي ولئن وجدت فيها مباحث في العلوم المختلفة كالاقتصاد ، والسياسة ، والدين ، والفلسفة ، والتربية ، وما الى ذلك ، فلا نأخذها الاّ انها مباحث ثانوية التجأ اليها المؤلف لشرح غايته وهدفهُ الوحيد من مقدمته هو اعداد علم مستقل ينقد به التاريخ . واذا زدنا على ذلك ان هذا ما يقولهُ هو بشأن مقدمته ، وتذكرنا انْ المقدمة هذه لا تزيد عن كونها ، كلمة افتتاحية ، ازاء باقي مؤلفه وهو تاريخهُ الكبير ، عرفنا بل تأكدنا ان موضوع المقدمة هو النقد التاريخي ليس الاّ

ولا ننكر ان المؤرخ المغربي باتخاذه التاريخ موضوعاً للتأمل وقاعدة لاستخراج

(٣) لمقدمة طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٤

القوانين العامة قد ساء فهم التاريخ بعض الشيء. لان كل ما يُسمى به المؤرخ الحديث هو جمع الحقائق الماضية وعرضها بطريقة مضبوطة منظمة ، دون ان يستخرج منها العبر والدروس. الاّ اننا لا نكاد نرى لابن خلدون مناصاً من هذه الامثال الفلسفية حين تحفّز لنقد التاريخ . ولا يسعنا الاّ ان نخالف رأي الدكتور طه حسين في هذا الشأن حيث يشبّهُ المقدمة بكتاب Montesquieu فيقول «ليس في وسعنا مثلاً ان نقول ان « روح القوانين » كتاب علمي او تاريخي ، بل هو مؤلف فلسفي . فاذا نحن راعينا فروق العصر والحضارة والذهن الفينا تقارباً عظيماً بين ذلك المؤلف ومقدمة ابن خلدون » لانهُ باصداره هذا الحكم قد تغاضى عن الغاية التي كتب من اجلها المؤلف كما بيّنا. واذا تذكرنا الغرض الاساسي الذي من اجله الّف ابن خلدون مقدمتهُ ، ولو انهُ استطرد في كثير من المواقف، حقّ لنا ان نعتبرها الحجر الاساسي الذي قام عليهِ النقد التاريخي Historical Criticism . وان اردنا ولا بدّ ان نقابلها باحدى المؤلفات فلا اقرب اليها بالاسلوب والموضوع من مؤلف ... الايطالي (٤) الذي عاش بعد المؤرخ المغربي بثلاثة قرون وكان اول من طرق هذا الموضوع من الافرنج

واما الطريقة التي سلكها مؤرخنا في بحثهِ فهي علمية محضة ، حديثة من عدة وجوه . إذ بحث في التاريخ بحثاً استقرائيًا ، وشاد قوانينهُ العلمية وتعميماتهِ الفلسفية على الحقائق التي عرفها وتعب في جمعها. بيد اننا ننقد منهجهُ في امر جوهري واحد، وهو عدم اكتراثهِ لفحص المصادر التي استقى منها الحوادث ، والتي جعلها اساساً لاستخراج علمهِ الفلسفي. ومثلهُ في ذلك على حدّ قول الانكليز مثل من وضع العربة امام الحصان ، إذ انكل في كتابة ما وضعهُ لنقد التاريخ ، على حقائق لم يهتم بتمحيصها قبل ان يتخذها قاعدة لاستنتاجاتهِ. وكان الاجدر بهِ ان يبدأ اولاً بكتابة تاريخهِ على الطريقة العلمية الصحيحة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى ابحاث المقدمة التي تبنى عليها . فيكون حينئذٍ قد تأكد من رسوخ قاعدتهِ التي يشيد عليها . ولهُ خطأ آخر هو محاولتهُ وضع قوانين عامة التطبيق ، مع انهُ بنى نتائجهُ على ما عرف من تاريخ الامم الاسلامية فقط وهو لا يكاد يعرف سواها من تاريخ الشعوب الاخرى . ولكن لابن خلدون الفخر بان Müller العالم الالماني قد رأى بعد الدرس العميق ان آراءهُ

(٤) واسم كتابه "Principe de la Philosophie de l'histoire" طبعة باريس سنة ١٨٢٧

المستنبطة، تنطبق بكليتها على تاريخ الاندلس والمغرب وصقلية فيما بين القرن الحادي عشر والخامس عشر، ولا غرابة في ذلك، لان هذا جلّ ما عرفهُ ابن خلدون قبل ان شاد فلسفتهُ

والتطور في نظر ابن خلدون طبيعي في الجماعات، ترتبط الحلقة منهُ بما يتسلسل بعدها. فالحاجة تدعو الى الغزو ويقتضي ذلك ضرورة تأسيس الزعامة، فلا تلبث القبيلة البدوية ان تتحضر في المدن. فاذا ما كثر فيها الانتاج حصل البذخ واستسلم السكان الى الدعة والخمول. فتغزوهم على الاثر قبيلة اخرى ذات عصبية وشوكة تقضي عليهم وتؤسس على انقاض حضارتهم تمدناً جديداً، وهكذا دواليك. والقارئ المتبصر يرى ان في مثل هذه النظرية اشارة بل تلميحاً الى النظرية التاريخية الحديثة القائلة بارتباط الحوادث وتسلسل الواقعات (The Continuity of History)

واذا كانت بعض اراء ابن خلدون في كيان الجماعات المركب؛ وتطور انظمتها يجعلهُ في اسمى مراتب المؤرخين الفلاسفة، فان ما يعزوهُ من شأن كبير للعمل والملاكة والاجرة يخولهُ مكانة رفيعة بين اقتصادي هذا العصر. أليس استنباطهُ على تقدم الزمن، ان لمرافق الحياة ولشروط المعاش ومقوماته فعلاً كبيراً في نشأة الطباع واكتساب الملكات الجديدة، دالاً على بعد نظره ونفاذ بصيرته؟ فلقد بحث في الجزء الثاني من القسم الخامس من مقدمته في الملاكة وتقسيم الاموال، والرزق ووجوه تحصيله. وبحث في موضع آخر في موضوع السلطان السياسي وطبقات الاجتماع، منوّهاً في اثناء ذلك كله بعلاقة هذه العوامل بالتاريخ وبتأثيرها في تسيير مجراهُ. فهل بالغ بعد ذلك كله، إن قلنا ان ابن خلدون هو الامام لمن يحاول اليوم شرح التاريخ وكتابتهُ من الوجهة الاقتصادية (The Economic Interpetation of History)

وللقارئ دليل آخر على عظمة الرجل واتساع عقله. فقد اعتبر الحياة الاجتماعية بكل ما تتضمن من المرافق والمؤسسات موضوعاً لبحثه، واراد ان يشرح تاريخ الانسانية باوسع معاني الكلمة ففاز بالغاية او كاد حين تكلم عن (الظواهر المستقلة عن الاجتماع) لعدم ارتباطها باختلافات الزمان والمكان. وفشل بعض الشيء في القسم الاكبر من مؤلفه حيث تناول (الظواهر الاجتماعية للبدو والحضر) وذلك لاقتصار معلوماته كما قدمنا على الشعوب الاسلامية، وتنوّع هذه الظواهر واصطباغها بمكيفات الاقليم والبيئة والدين. ونحن لا نقول خشية التطرف الاّ ان جهود المؤرخ المغربي

هذه قد تذكرنا ميول بعض مفكري العصر الحاضر ومؤرخيه امثال H. G. Wells (٥) و J. H. Robinson (٦) الذين تطمح نفوسهم لجعل التاريخ مسرحاً للعالم تقوم الانسانية بتمثيل ادوارها عليه

ابن خلدون فيلسوفاً

لقد كنا نستطيع ان نلحق هذا الفصل بما سبقهُ ، او ان ندرج قسماً كبيراً مما اسلفنا من آرائه المختلفة تحت هذا العنوان ، لشدة ما بين هذه الموضوعات من علاقة في مباحث ابن خلدون العلمية . الا اننا رأينا ، طلباً للتبويب وطمعاً في الوضوح ، أن نخصص للبحث في آرائه الفلسفية الصرفة ، فصلاً بمفرده

اشتهر المترجم بآرائه الفلسفية ، مع انهُ اتخذ لنفسه التاريخ حرفة، ولعل في ذلك ما يساعدنا على فهم مقدمته وما استطرد اليه فيها من شتى الابحاث . لم يرض ابن خلدون عن الفلسفة المدرسية كما عرفها اهل زمانه ، لان عقليتهُ العلمية كما حللناها لم تتفق وقواعدها الموضوعة . والعالم في نظر مؤرخنا اوسع من ان تحيط به نظريات الفلسفة واوضاع المنطق ، ويرى أن ليس للعالم الحقيقي الا أن يسبر الحوادث بفكره الصائب ويتدبر اختباراته اليومية كيما يصل الى الحقيقة الناصعة في العلم والفلسفة .

فابن خلدون سلك في الفلسفة سبيلاً تختلف عن طريقة ارسطو واتباعه ، فهو لم يحلّق للبحث في السبب الاول والروح وما الى ذلك من الابحاث التجريدية ، بل قال ان الفلسفة علم للموجودات يجب تحقيق قواعدها بالامور التي تشاهد وتحسّ . وعلى ذلك كان التاريخ في نظره علماً فلسفيًّا ، لان طبيعة الانسان ثابتة على كرور الايام ، ويمكنك ان تقابل العصور فتتثبّت من حوادثها باختباراتك اليوم . والمترجم اقرب ما يكون في آرائه الفلسفية هذه ، الى مدرسة الفلاسفة الوضعيين Positivists واليه يعود الفخر في تقرير تلك القواعد الاجتماعية التي نحسبها اليوم بسيطة مبتذلة وما هي حقًّا الا القاعدة الاساسية التي شاد عليها هؤلاء ابحاثهم

وتمتاز فلسفتهُ عن فلسفة القرون الوسطى ايضاً ، بتباعدها عن الدين . فان ابن خلدون مع كونهِ من المؤمنين بما فوق الطبيعة كبقية مفكري المسلمين ، حاول

---

(٥) راجع مقدمة كتابه The Outline of History طبعة نيويورك سنة ١٩٢٠ ص ٦

(٦) اطلب الفقرة الثامنة من الفصل الثاني في كتابه The New History

ان يخضع هذه الاعتقادات لسلطان النظام (Scheme) ان لم نقل لسلطان العقل (٧) وليس للدين في فلسفته وطريقة تفكيره من كبير أثر ، فهو قد قبل به اما عن عقيدة راسخة او لاسباب سياسية لا تزال تجهلها . ولذا لا تراه يلتجىء الى استعمال ما وراء الطبيعة والكلام الا في المواقف التي لا تخضع للطريقة التجريبية العملية ، والمشاكل التي تخرج عن دائرة الاختبار

ونأخذ عليه امراً واحداً في فلسفته ، هو ميلهُ من حيث التفكير الى المدرسة النفعية Utilitarianism . وانت تصادف هذا الميل في مؤلفه بين الآونة والاخرى ، حتى تهيأ لك ماثلة في فصله عن العلم والتعليم . فتراهُ لا يقيم للعلم وزناً الا بمقدار نفعه وفائدته ، اذا يقسم العلوم الى نوعين اولها مفيد بذاته ، والآخر واسطة لهذه العلوم النافعة . والنوع الاول في اعتقاده اهم بكثير من الثاني ، ولا قيمة البتة لسوى هذين النوعين من العلوم . غير اننا متى وزنا الرجل بميزان العصر الذي عاش فيه ، وراعينا المقاييس العقلية والاخلاقية لتلك العصور ، وجدناهُ متميزاً عن اترابه من بني زمنه ، مسابقاً لعصره في كثير من مآتيه

الخاتمة

والخلاصة ان ما من عالم يبحث في كتابات ابن خلدون مهما كان ميلهُ واختصاصهُ الا ويستنتج منها المعلومات الطريفة عن نفسية هذه الشخصية الكبيرة وحقيقة اميالها . وقد سبق لنا فقلنا ان الدرس العلمي الصحيح في حياة المترجم ومؤلفاته ما زال بعد برعماً لم يزهر . وليس هذا المقال سوى نظرة اجمالية الى الموضوع كما عرفهُ اليوم ، تجاسرنا فيه على الادلاء ببعض الآراء الشخصية ولا ندري هل يثبتها البحث العلمي المستمر ، او يقوض اركانها . بيد انهُ اذا كان البارون دي ساسي الافرنسي (De Sacy) قد لام جمهرة المستشرقين لتركهم مثل هذا الموضوع الخطير ، وانصرافهم الى الابحاث التافهة من المشرقيات (٨) فاحرى بنا نحن ان نلوم انفسنا لاهمال مثل هذه المباحث الهامة في التاريخ العربي

بيروت شكري مهتدي ب . ع

(٧) اطلب كتاب "The Religious Attitude and Life in Islam" Macdonald ص ٤٥ — ٤٩ (٨) راجع مقالة عن ابن خلدون في معجم Biographie Universelle المجلد (٢١) ص ١٥٣